

السلطة والصراع في واقع الحياة الزوجية

قرطي فائزة

طالبة دكتوراه، تخصص علم الاجتماع العائلي، جامعة وهران 2.

الزواج هو من بين النظم الأساسية التي تتضمنها العائلة، يتم وفقا لمعايير محددة عرفيا لا يجب تجاوزها في تأسيس علاقة زوجية، أين يدخل كل من الرجل والمرأة إلى عالم الراشدين تتحدد فيه مسؤولياتهما وواجباتهما اتجاه أعضاء العائلة، حيث تعدد الأوضاع والأدوار بعد الزواج؛ يتخذ الرجل دوره كزوج وأب في علاقته بأسرته النووية وابن في علاقته بالأسرة الأصلية التي نشأ فيها واكتسب منها معايير السلوك، وتجد المرأة نفسها في علاقة تفاعلية معقدة ضمن بناء أسري يعدّ غريب عنها أين تتحدّد واجباتها كزوجة في علاقتها بالزوج وكّنة في علاقتها بالحماة -أم الزوج- خاصة وأسرّة الزوج عامة، حيث تتعرّف على واقع الحياة الزوجية.

لا نعرف ما هو الزواج إلا بعد الزواج، فمضمون العلاقة الزوجية لا يتعرّف عليها الفرد إلا بعد أدائه للأدوار المناطة له بعد الزواج، حيث يصطدم بالواقع. سيصطدم عندما يعي أن العلاقة الزوجية التي كان يطمح في بنائها مع من وقع عليه -أو عليها- الخيار لم تنشأ بالمعنى الخالص المتوقع، أين اعتبر كل من الرجل والمرأة القرين هو نصفه الثاني ويعدّ شريك الحياة. فيكتشفا أنه قد نشأ رابط زواجي ولم يتحقق الرابط الزوجي.

فما معنى الرابط الزوجي وما مضمون العلاقة الزوجية؟

I. معنى الرابط الزوجي (couple) :

لغويا مفهوم "زوجي" يعني بين جانبين، مزدوج، عدد قابل للقسمة على إثنان. و "زوج" بمعنى قرين، بعل، زوجة. وهذا ما يوحي إلى أن الرابط الزوجي -أو الزوجين- هي علاقة بين شخصين اثنين مقتربين، الزوج والزوجة في نفس السياق نشير إلى ما جاءت به "FURNEMONT Aline" توضح لنا مسألة العلاقة الزوجية فتقول أنّ، "تشكيل علاقة زوجية تكون بالضرورة علاقة بين اثنين. ولكن يتحقق الرابط الزوجي عندما طرقي العلاقة يفكرا كزوجين فينتجا معا تصوّرات خاصة للمشاركة... فهما شخصين يبينان معا مجال تصوّري موحد... معنى أنا وأنت وعلاقتهما معا؛ وهذا يعني أنّ الزوجين لا يعتبران كمعادلة جمع بين شخصين اثنين تكون واحد، ولكن هي علاقة بين فردين اثنين قابلين للانقسام، مع إمكانية تكوين علاقة من خلال تحقيق مجال مشترك بينهما"⁽¹⁾.

أما DESINGLY فقد وضح أن أهم ما يميّز الرابط الزوجي هي العلاقة القائمة على عوامل التفاعل المترجمة إلى فن التعامل والتبادل والمساعدة المشتركة بينهما والتي تبني الهوية الشخصية في علاقة كل منهما بالآخر إذ كل زوج يتعلق بالآخر حيث يكونان الأنا الزوجية"⁽²⁾، فتصبح علاقة وطيدة غير قابلة للانفصال. ويؤكد بيار بورديو حيث يعطي شرط قيام الرابط الزوجي مُشيرا أنّ: "الزوجين يكونان وحدة أولية مشتركة يستحيل تقسيمها، إذا يهتدي كل واحد إلى نفسه في الآخر الذي يعترف به على أنه الآخر ذات نفسها... حتى حال الانصهار والتوحد... حيث يمكن أن يتلاشى أحدهما في الآخر... مع الاعتراف المتبادل عن الثقة"⁽³⁾ هذه الثقة التي لا تتحقق إلا بعد مدّة من الزمن، بعدما يتعرّف كل طرف بالآخر أين تتوفّر شروط الانسجام والتوافق المعنوي والعاطفي بين الطرفين.

ولكن في المجتمع الجزائري تبقى هذه العلاقة غامضة، تستدعي التنقيب في غور العلاقات الأسرية، مما يسمح لنا بدراسة الزوجان في علاقتهم بالأسرة الممتدة، فلا يمكن أن تقتصر على العلاقة الثنائية وتتجاهل أعضاء الأسرة التي يتفاعل معها الزوجان. يشير Lang أنّ، "الاقتصار على العلاقات الثنائية غير كاف ويقودنا إلى فهم خاطئ لحياة الأسرة، فيجب أن ننظر إلى الفرد في علاقته الثنائية وأبضا في علاقاته الثلاثية"⁽⁴⁾.

وهذا ما وضّحه KELLERHALS مشيرا أنّ، الثنائي يتكوّن من خلال تفاعله مع طرف ثالث، أين سيواجه مشاكل ومتاعب الحياة اليومية يكتشف بذلك الزوجان مدى قدرتهما على مجابهة الصعاب والعواقب التي ستعرض طريقهما معا⁽⁵⁾، ويؤكد René Girard ضمن نفس السياق أنّه، "لا يوجد قصة منحصرة في علاقة بين اثنين"⁽⁶⁾.

وعليه لا يمكن فهم العلاقة الزوجية إلا في إطار بناء اجتماعي أعمق حيث ندخل في غور التفاعلات الأسرية، ونتعرف عن واقع الحياة الزوجية ومضمونها، ونبحث عن معنى الرابط الزوجي في علاقتهما بأعضاء العائلة بعد الزواج. أو بتعبير آخر حيث نستفسر، هل ينشأ الرابط الزوجي في ظل العلاقات الأسرية؟

II. واقع الحياة بعد الزواج: هي علاقة ثلاثية وليست زوجية

بعد الزواج سيحتل الرجل وضع الزوج في علاقته بالزوجة، ووضع الابن في علاقته بالأم، أما المرأة بجانب وضعها كزوجة ستمتد علاقتها بأسرة الزوج عامة والأم -الحماة- خاصة، حيث تبرز علاقة ثلاثية بين الزوج والزوجة وأم الزوج. وهذه الأخيرة سيتحدد دورها الرئيسي كحماة في علاقتها مع الكنة -زوجة الابن- منتظرة منها الامتثال لمعايير العائلة، ومتوقعة منها الخضوع لأوامرها. هذه العلاقة الثلاثية تأخذ شكل هرمي. تتمركز الأم في قمته، تقوم باحتكارها للرابط الزوجي إذ تُبْطِئ إنشأؤه، فلها السلطة أن تقوّي هذا الرابط أو تضعفه؛ كيف ذلك؟

تدخل الأم طرف وسط بين الزوجين. إذا سمحت للزوجين التقرب من بعضهما فستترك مجال مفتوح بينهما حيث تسمح للزوجة بالانفراد مع الزوج في أوقات الفراغ؛ وإلا ستخلق بُعد المسافة بينهما ضاغطة على الكنة وموطدة علاقتها بالابن أكثر بعد الزواج إذ لا تسمح بأي نوع من الاجتذاب الزوجي. -وهذا ما تبين لنا في الدراسة الميدانية- حيث أنّ الأم -الحماة- تضغط على الكنة لتمنعها من التواصل بزوجة من خلال ملاء أوقاتها بالعمل المنزلي وجعلها تحت المراقبة المستمرة لها، فإنّ الزوجة لم تنزوّج بالرجل فقط وإنما به وبأسرته. إنّ "الزوجة هي تحت هيمنة الزوج وعائلته وهي من تقوم بكل الأعمال المنزلية طوال النهار و تجلس مع حماها مساء قبل أن تذهب إلى مخضعتها في ساعة متأخرة ليلا وتستعد لليوم التالي، فالزوج لا تراه إلا ليلا عند النوم"⁽⁷⁾.

1. مضمون العلاقة الثلاثية:

أ. وضع الزوجة في علاقتها بالحماة: تنصاع الزوجة لتحز رضا الحماة.

الزوجة لا بدّ عليها أن تمرّ بـ"فترة تربيّة"⁽⁸⁾ في أشغال المنزل وتبرز كفاءتها كامرأة مطيعة للزوج وأسرته. فالزواج الناجح بالنسبة للمرأة يتحقق عندما تتقرب أكثر من الحماة وتقوم بأداء واجباتها ككنة بدون تقاعس لكي تجلب رضا الحماة وتضمن مكانتها ضمن العائلة. ولهذا، من أعراف العائلة التقليدية أن يعيش الزوجين ضمن السكن الأبوي لفترة قبل انتقالهما إلى سكن مستقل: "رغم أنّنا اشتغلنا قبل الزواج السكن المستقل... إلّا أنّهم تغاضوا عن الأمر". "أملك سكن مستقل، ولكن أمني طلبت مني أن أبقى لفترة معهم، لتتعرف أكثر على الكنة الجديدة. وتتعود هي على العائلة؛ فالحماة تُريد من الزوجة التعرّف على معايير العائلة منتظرة منها تقبّلها خاضعة لها وطائعة لأوامرها. وهذا من القيم الأساسية في علاقة الزوجة بأسرة الزوج حيث يسهل عليها الاندماج. يوضّح بوتفنوشنت أنّ، " الزوجة في البداية تكون غريبة ضمن عائلة الزوج، إلى أن تُبرز همّتها في أشغال المنزل وامرأة طائعة لهم... يستوجب عليها الاندماج جسدا وروحا فتكوّن معهم العقل الجمعي، فيجب أن تحقق وجود منزلي تستكمل فيه وظيفتها حيث تعني بالعائلة ككل"⁽⁹⁾ وتتفاعل مع أعضاء الجماعة بالضمير نحن عوض الضمير أنا.

لكن من شدّة الخضوع إلى حدّ الانصياع للحماة، ستجد الكنة نفسها في وضع كاسح وساحق، حيث تعي بمكانتها كخادمة في علاقتها مع أسرة الزوج أكثر منها زوجة في علاقتها بالزوج، حيث تقوم بكل الأعمال المنزلية بمفردها. مُوضّحة لنا معظم المبحوثات: "أنا أقوم بكل الأعمال المنزلية -ولو أنّ أخواته في المنزل- لو أكون مريضة إلى درجة الموت".

يشير "Lacoste-Dujardin" أن زوجة الابن ضمن الأسرة المغاربية تأخذ مكانة عاملة تحت مراقبة الحماة تقوم بالأعمال المنزلية الشاقة، أما الأعمال الأخرى خاصة بالأم سيدة العائلة⁽¹⁰⁾. ويضيف أنّ، الحماة "لها كنة"، هذا يعني "جارية في المنزل"، والحماة هي سيّدة المنزل لها مرتبة رفيعة ومريجة⁽¹¹⁾. وفي نفس السياق يشير "Lacombe" في تعريفه للزواج: "إنّ الزواج ما هو إلّا رغبة مزدوجة أن تملك أنثى وأن تملك خادمة بيت"⁽¹²⁾.

وهذا الوضع الذي لن تتقبله الزوجة بعدما أن تعي بمكانتها الوضيعة وشخصيتها المهذورة، وأن علاقتها بعد الزواج غير محصورة بينها وبين زوجها وإنما مع أعضاء العائلة ككل؛ ولا يوجد أي قدر من التبادل ولو بدرجة قليلة⁽¹³⁾، حيث تعطي من دون أن تأخذ ولا يحق لها الشكوى والتأوه من الظروف الساحقة. نخبرنا معظم المبحوثات أنها عندما تشتكي لزوجها فلا يأتي في صفها أبداً.

على حسب "الإمام الغزالي" الزواج الإسلامي ليس بعيد أن يكون بالنسبة للمرأة نوع من العبودية لأنها مجبرة بطاعة الزوج بدون حدود...إلا فيما لا يرضي الله،⁽¹⁴⁾ ونضيف أنّ هذه العبودية تعدّت العلاقة الزوجية إلى علاقة ثلاثية محاولة الزوجة كذلك الخضوع لمطلّبات أسرة الزوج. إذ يصبح واقع مرير لا تتحمّله الزوجة ولن تستطيع المواصلة في تفاعلها مع أسرة الزوج في سكن أبوي، فتطلب التغيير طالبة الفصل في أوضاعها وأدوارها ككئة وزوجة ضمن سكن مستقل محاولة إعادة بناء العلاقة الزوجية بمضمون زوجي وليس ثلاثي؛ فتقوم بالمواجهة وتدخل في علاقة صراع مع الزوج وأسرته، محاولة جذب الزوج نحوها -وهذا يتناسب مع نمط شخصية المرأة ودرجة وعيها وقدراتها المادية خاصّة إذا كان لها دخل شهري، أو ممتلكات خاصّة تضمن بها نفسها- فقد تنجح في إعادة مضمون العلاقة الزوجية أو تخفق إذا الزوج لم ينحاز نحوها وفضّل البقاء تحت طوع الأم في وضعه كإبن؛ فإنّ الزوج هو في موضع تنافس بين امرأتين يتوسّط العلاقة الثلاثية تحاول كلّ منهما جذبه نحوها. وفي هذا الموقف إمّا أن يتحقق الرابط الزوجي أو يُستبعد.

إنّ نشأة العلاقة الزوجية تكمن في سرّ العلاقة بين الأم وابنها. "كلّما كانت علاقة الزوج بالأم قويّة كلما كانت علاقته بالزوجة هشّة، وكلّما كانت صلة الزوج بأمّه نوعاً ما ضعيفة كلّما كانت علاقته بالزوجة قويّة"⁽¹⁵⁾، حيث يقف الزوج موقف الاختيار بين الرشد كزوج مسئول عن أسرة آخذاً برضا الوالدين محاولاً الإنصاف، أو مكانته كإبن مطيع لوالديه. فالرجل الراشد هو الرجل الذي يتحمّل مسؤولية اتخاذ القرارات بصفة خاصّة ومستقلّة. وإلاّ سيكون زوج غير مُستعد للحفاظ على العلاقة الزوجية فهو رجل منفرد في علاقته مع الأم تابع لها⁽¹⁶⁾.

ب. مضمون العلاقة بين الأم وابنها:

العلاقة بين الأم والابن هي علاقة صلبة وقويّة لا يوجد لها مثيل وتختلف عن أي نوع من العلاقات بين رجل وامرأة، تتدخل فيها عوامل اجتماعية، سيكولوجية، وثقافية.

يمكن القول أنّ الأم عاشت نفس الظروف التي تمارسها هي نحو كئنتها وبالإضافة، أين المرأة التقليدية لم يكن لها حرية التعبير عن واقعها المعاش ولا تتجرأ على المعاتبة وطلب التغيير ضمن أسرة متمسكة بالأواصر، وما كان عليها سوى الامتثال وتقبّل الوضع، فتبقى امرأة مهذورة لا ينحصر دورها إلاّ في طاعة الحماة خاصّة والأسرة عامّة، وتبقى علاقتها مع زوجها علاقة سطحية لا تتعدى علاقات جنسية بهدف الإنجاب أين تكسب مكانتها ضمن الأسرة وتضمن نفسها كأم لأولاد، فالتبادل العاطفي بين الزوجين غير معترف به، ولهذا ستصّب كل اهتمامها بأبنائها وخاصّة الإبن الذكر؛ وتعبير آخر يُشير Lacoste-Dujardin أنّ، "المرأة المغربية، تصبح امرأة ليس من خلال العيش مع الرجل، ولكن من خلال ولادة الإبن الذكر"..." فيصبح أولادها رجال حياتها"⁽¹⁷⁾.

ويوضّح الأستاذ فسيان أنّ: "الأم ضمن العائلة التقليدية مسلوقة ومغتربة في علاقتها مع الزوج، ومنه تعوّض فقد الزوج بكسب الابن وخاصّة بعد زواجه أين تصبح امرأة صلبة لا تريد فقدته مُعتبرة أن الابن ملكها لأنها أثبتت مكانتها ضمن أسرة الزوج إلاّ بوجوده حيث تحمّلت الصعاب لفترة طويلة"⁽¹⁸⁾.

ولهذا لا تتقبّل الأم أي نوع من التبادل العاطفي بين إبنها وزوجته وتنع أي نوع من الانجذاب الحسيّ بينهما. وبطريقة سحرية ستجذب بها ابنها نحوها وتجعله تحت سلطنتها كأمّ حيث أنّ، "الأم تترك في تصوّرات الطفل صورة مثالية ومقدّسة من خلال التضحيات التي واجهتها في حياتها ليصير رجلاً، وهي استراتيجية تستعملها الأم لكي لا يدخل في علاقة عاطفية مع امرأة أخرى من غيرها؛ ومنه الرجل يتكوّن في تنشئته على أساس أنّ له ذين عليه أن يُردّ للأم"⁽¹⁹⁾. مما يولّد علاقة محكمة بين الأم والابن تُبقّيه بذلك تحت وضع طفولي لا تُعتقه من التبعية ويبقى تحت كنفها إلى غاية سن ما بعد الزواج فالزواج لا يمنع الابن من أمّه"⁽²⁰⁾.

كما أنّ امتيازات البعد السيكولوجي له درجة قويّة بين الابن وأمّ. إنّ دور الأم التعبيري داخل الأسرة يمنحها علاقة تفاعلية قويّة بين أبنائها، تصبح أهم عضو في البناء الأسري، وقوّة المشاعر التي تمنحها الأم لأبنائها، لها تأثير قويّ. وبكفاءة يصبح الابن لصيق أمّه، وتبقى الأم محافظة دوماً على دورها التنشوي. فيبقى منها وإليها وفيّاً ومخلصاً لها مدى العمر، فهي المرأة شريكة الحياة.

يقول P. Marranda معبراً عن قوّة الرابط بين الأم وابنها: "الجنين هو شخص منها، شخص تقوم هي بصنعه، سيصبح لها دوماً، لا يمكنه أبداً تطليقها... كيانه كلّ تابع لها. و يُجبر على حبّه لها"، كما أنّه يبقى دائماً مولعاً بها حتى ولو فقدت نظارتها وجاذبيتها الأثوية. والوازع الديني له الأثر البالغ في رفعة مكانة الوالدين والأم خاصّة حيث الثقافة الإسلامية تحمل إجبارية الخضوع للأم واحترامها وطاعتها فتصبح الأم لها مكانة رمزية مقدّسة^(٢١) ومن خلال هذه المقوّمات كلّها التي نشأ عليها الذّكر ستجعله مركزاً على وضعه كإبن، موطّداً علاقته أكثر مع الأم خالفاً علاقة هشّة مع الزوجة.

ج. العلاقة بين الزوج والزوجة:

العلاقة بين الزوجان هي علاقة تراتبية بين الجنسين وهشّة قابلة للانفصال أمام ظروف الحياة بعد الزواج، أين يصطدم كلّ منهما بواقع الحياة الزوجية.

بما أن الزوج في وضعية خضوع وامتنال للأم، فسيبرز سلطته اتجاه الزوجة حيث يريد إثبات رجولته قائماً فجوة في العلاقة الزوجية خالفاً ميل عاطفي ضعيف نحوها، فالعلاقة التي تربطه معها هي علاقة جنسية، حيث يتمّ الربط بين الزواج والتزاوج بهدف الإنجاب وإنشاء أسرة نووية، والفصل بين الزواج والحياة العاطفية، إذ أنّ العاطفة الجياشة موجّهة للأم دون الزوجة. وثقافة المجتمع تحثّ على هذه المحبة للأم، والزوج الذي يُظهر أي نوع من المحبة الزوجية سيتعرّض لنظرة دونية من طرف العائلة، وكأنه نكر عرفان أمّه، وفضّل عنها امرأة أخرى لم يتعرّف بها إلّا سابقاً. مما يسمح لنا القول أنّه: "اجتماعياً... نشجّع الزوج على مواصلة حب امرأة لا يمكن إقامة علاقة جنسية معها"⁽²²⁾.

وفي نفس السياق يوضح لنا "Camilleri C." أن "الزوج عند مسايرته ومجاراته للزوجة يُتهم بعدم الطاعة لعائلته وفقد لرجولته"⁽²³⁾: "عندما جئت في صفّ زوجتي... صرت امرأة معهم... ووصل الأمر إلى حد طلبوا منّي أن أطلق".

فإنّ التفاهم والتجاوب والتوافق الزوجي علاقة طوباوية ضمن النظام العائلي؛ تصبح الزوجة بذلك في علاقة تراتبية مزدوجة بين الحماية والزوج، مما يصعب عليها التأقلم في علاقة مفروضة عليها لا تستطيع تقبّلها وتحملها حيث ستشعر ضمنه بالإهانة. مما يؤدي بها إلى التقاعس عن أداء واجبها ككّنة -من جهة- رافضة رمزية العلاقة مع حماها، ونافرة من التّوجّس مستبعدة الرابط الزوجي -من جهة أخرى- قد يصل الأمر إلى فضّ العلاقة الزوجية وطلب الطلاق.

"سيمون دي بوفوار" توضّح أنّ الزواج مفروض على المرأة لسببين: أولاً أن تنجب الأطفال للجماعة، و ثانياً، إرضاء حاجات الذكر الجنسية والعناية بمنزله، فهو عبئ مفروض عليها.. كخدمة مقدمة للزوج⁽²⁴⁾. وأكثر من ذلك هو عبئ مقدّم كذلك لعائلته عامّة. وتضيف موضّحة في نفس السياق على أن المرأة ينبغي لها أن تكون موهبة بحب زوجها وإلا تصاب بالخفق أمام حرمانها من نتائج جهودها⁽²⁵⁾، فإذا أحبّته ستحاول الاندماج والخضوع لمتطلّباته وإذا دخلت في علاقة معه كزوج متسلّط فلا تتحمل ولن تحقّق أبداً معه رابط زوجي.

فإذن نمط هذه العلاقات الأسرية، بعد فترة من الزمن ستثير ضغوطات على الزوجة توجّهها إلى البحث عن تغيير نمط هذه العلاقات إلى نمط آخر يتناسب مع معتقداتها. يوضّح Kaufmann أنّ: "العلاقة الزوجية تُبنى كما يتمناها ويتصوّرها الفرد أن تكون وليس بموجب أنّه خُلِق لهذه العلاقة، ولهذا يقوم الفرد ويواجه الأوضاع التي تخالف معتقداته الفكرية أين سيّخذ القرارات الفردية... تؤهّل الفرد إلى تخطيط مستقبل نابع من اختياره الشخصي⁽²⁶⁾ وهذا ما تقوم به الزوجة حيث تصدر قرار الانفصال عن الأسرة التقليدية رافضة رمزية العلاقة الثلاثية، طالبة من الزوج خلق بعد المسافة بينها وبين أمّه في سكن مستقل حيث تتغيّر نمط الروابط الأسرية.

ولكن نعيد التساؤل، هل انفراد الزوجين في سكن مستقل يكوّن الرابط الزوجي؟

2. استقلالية السكن وواقع العلاقات الأسرية:

اتفق معظم الباحثين الاجتماعيين وعلماء الانثروبولوجيا أن استقلالية السكن ونشأة الأسرة النووية هي نتاج المجتمع الصناعي؛ إلّا أننا لا يمكن إنكار أنّ وطأة النظام التقليدي ضمن العائلة والضغط الأسرية في علاقة الزوجان بالأسرة الممتدة تفرز إرادة قويّة في البحث عن إنشاء

أسرة نووية أين ينفرد كل من الزوج والزوجة وأبنائهما في سكن مستقل؛ مؤكداً "Desingly" أن: "الاستقلالية السكنية ما هي إلا معارضة لأشكال أخرى من العلاقات الأسرية" (27).

إنّ مرفولوجية الأسرة تغيّرت وأخذت شكلا مصغرا ومنفصلا في الإقامة عن السكن الأبوي. وهذا راجع إلى بحث الزوجان عن حياة مطمئنة بعيدة عن التوترات التي تخلقها تعدد الأدوار؛ ولكن بمؤه "دوركلم" أن: "الأسرة من حيث الشكل والبناء يعني في عناصرها الظاهرة وهو الجانب البسيط الذي يمكن تحديده إحصائيا... فهذا الجانب يخفي بذلك الوظائف الأسرية ونمط حياتها، وهذا يجعلنا نخاطر في إهمال الجانب العلائقي والذي يعتبر مهم في الدراسات العائلية مما يستوجب علينا البحث في مضمون العلاقات بين الأسرة النووية والأسرة الممتدة.

قد تبين لنا من خلال الدراسة الميدانية في هذا السياق أن، التغيرات مسّت الجانب المرفولوجي للأسرة ولكن مضمونا لا تزال العائلة الجزائرية متمسكة بالمعتقدات الثقافية للروابط الأسرية. فالزوجان يتبادلان الزيارات مع أَسْرَتَيْهِمَا بصفة متكررة رغم بعد المسافة حيث تتجمع العائلة ما دام الوالدين على قيد الحياة، -مع إمكانية استعمال الهاتف- (29)

يعتبر "دوركلم" أنّ "النظام الاجتماعي يركز على الاحترام للجماعة وتقاليدها ومشاعر الانتماء لها... فنحن متعلقين بالأسرة لأننا نتعلّق بالشخص الذي هو الأب، الأم، الزوجة، الأبناء..." (30). ما تبين في الدراسة التحقيقية أن الزوجان متمسكين بقوة بالعائلة الأصلية وهذا ما أنتج الخلافات بين الزوجان. فما اتضح، أنّ رمزية العلاقة بالعائلة لا تزال قائمة وممتدة مضمونا، أين العواطف تلعب دورا كبيرا. قد يتوصل الأمر إلى نية فضّ العلاقة الزوجية لغرض امتداد العلاقة مع الأسرة الأصلية.

أشار camilleri أنّ السكن الذي يجمع الزوجين بالأسرة يخلّف صعوبات في التفاعل (31)، مما يستوجب إقامة الحدود بالبحث عن بُعد المسافة. ولكن ما توضح أيضا في أرض الواقع أن العامل القوي الذي يدفع للصراعات بين الزوج والزوجة هو الرابط الصلّد الذي يجمع الزوجان بأسرة الانتماء.

في نفس السياق ندرج حالة من الحالات، حيث حدّثني المبحوثة عن نمط حياتها بين السكن الأبوي والمستقل فتحكى: "تزوجت في 2010، سكنا مع أهله... ظروف ساحقة... تحت المراقبة المستمرة لأمه، وهو لا يدافع عني ولا حتى يجلس معي أبدا... فلّذت حملت حقيقتي وذهبت... بعد شهرين، استأجرنا منزلا لوحدها... وجدت نفسي في نفس العلاقة مع الزوج -أقول لك!- يذهب إلى عمله صباحا، وبعد خروجه يذهب مباشرة عند أمه ويبقى عندها حتى أذان المغرب... علما أنّ، النهار كلّما يطول، كلّما يبقى ماكنّا عندها... حتى الجمعة يذهب لمنزلهم... حتى أنا قررت لأطلق بعد سنة ونصف..."

ومنه نشير أن العلاقة بين الزوجان هي علاقة واهية قابلة للانفصال أمام ظروف الحياة المعقّدة في غور وغمار العلاقات الأسرية. أما العلاقة بالوالدين هي علاقة سرمدية تسكن ذات الفرد حيث يبقى الزوج ابن أسرته وتبقى الزوجة ابنة أسرتها، والعلاقة بين الرجل والمرأة المتزوجين ما هي إلا علاقة زواجية لا تتعدى علاقات جنسية بمهدف الإنجاب، ولا تربط بينهما معنى الرابط الزوجي. فالزواج ضمن العائلة الجزائرية يعدّ مؤسس لعلاقة زواجية وليست زوجية.

يوضح LACOSTE-DUJARDIN أن: "المرأة-الأم قبل كل شيء تنتج العلاقة الرجل-الابن قبل كلّ شيء، أين كلا من المرأة والرجل لا يجدان الاستعداد لتكوين علاقة زوجية خاصة، وهنا الدائرة تغلق والأدوار تبقى نفسها ونفس الصعوبات يعاد إنتاجها عبر الأجيال" (32).

3. الصراعات الأسرية خلّفت أشكال أخرى من العلاقات

أ. الانحياز الأمومي للأبناء:

علاقة الكنة بأسرة الزوج ما هي إلا علاقة رسميات فقط تحاول الزوجة من خلالها الاندماج ضمن الجماعة. لكنّ هذا الاندماج لن يتحقّق بوجود هالة من التوترات بين الحماة والكنة أين كلّ منهما يبحث عن الثغرات الموجود في الآخر، ومهما تودّدا لبعضهم البعض لا يُجرزا علاقة وطيدة بينهما. فإنّ "الحب الذي نحملة ونكنّه للأم يبقى وحيد وفريد للغاية... فيمكن القول، أحي الحماة مثل أمك، وليس كالأم... فالمسألة هنا... مرتبطة بعلاقة الانتماء "relation de filiation" (33) حيث لا تتقبل "الكنة" من "الحماة" أية إهانة في أيّ

ظرف من الظروف، فلن تكون الكنة موضع البنت أمام حماها، وتبقى الحماة هي أم الزوج وليست أم الكنة، مما يؤد الصراعات إلى حد فتور العواطف بينهما تستدعي الشعور بالنفور والابتعاد.

ومنه، الزوجة ستخلق بعد المسافة بينها وبين الحماة جاذبة نحوها أبنائها قاطعة الصلة بأسرة الزوج موطدة علاقتها أكثر بأسرتها الأصلية، مما يتولد النسب الأمومي مضمونا في علاقة الأبناء بأهل الأم، أما النسب الأبوي لا يتضح إلا شكلا بارزا من حيث اللقب المأخوذ من الأب، يشير CAMILLERI C. أن "الابن هو ملك عائلة الزوج وحامل لاسمها"⁽³⁴⁾، ولكن نشير نحن أن الابن أصبح ملك الأم وحامل لاسم عائلة الزوج. وهذا ما اكتشفناه في الدراسة الميدانية من خلال تصريحات معظم المبحوثات: "كنتي لا تحب المحيء ولا تأتي بالولد الصغير معها". "قمت بحدود بيني وبينهم... أبنائي لا أتركهم معها (الحماة) أبدا... فأولادي يحبون "بوي" و"ما". مما يدعو إلى ضعف الروابط العائلية لأسرة الزوج بضعف العلاقة بين أم الزوج وأحفادها، مما يستدعي الإنحياز الأمومي للأبناء؛ وهذا ما يؤدي إلى ضعف النظام الأبوي. يوضح لنا بوتفنوشنت في نفس المجال أنه، كلما تعلق الأبناء بعائلة الأب ومندهجين ضمنها، كلما برزت قوة النظام الأبوي، أمام هشاشة العلاقة مع عائلة الأم"⁽³⁵⁾. وما يتبدى تدريجيا هو قوة العلاقة بين الأبناء وأسرة الزوجة أين المرأة تمردت وخلقت ضعف العلاقة بين أبنائها وأسرة زوجها.

ومما لا يجب علينا إهماله ولا بد من الإشارة له أن، هذه الظروف المعقدة بعد الزواج، تجعل الرجل يدخل في علاقة متشابكة بين امرأتين، يحاول دائما البحث عن حلول بين أمه وزوجته، فيجد نفسه في الآخر يُرضي إحداهن: "حماتي تأمر زوجي أن يأخذ إليها البنت ويجبرني أنا على ذلك... ابنتي لا تحب أمي وأبي كثيرا... ومولعة بحماتي.."

ما يفسر لنا أن المرأة لها دور فعال في التأثير على الرجل سواء كانت هذه المرأة الأم أو الزوجة، في مجتمع يعتبرونه أبوي. إن المرأة لها سلطة التوجيه وتغيير نمط الروابط الأسرية فتعتبر فاعل اجتماعي نشط تصل إلى غاية إصدار حكم الطلاق وفض العلاقة الزوجية.

ب. الطلاق: قرار صادر من المرأة

يمكن أن يصدر قرار الطلاق من الأم كما قد يصدر قرار التخليق أو الخلع من الزوجة إذا انعدمت العلاقة المتوافقة بين احد أطراف العلاقة الثلاثية في تفاعله مع الآخر حيث يصعب التواصل.

"هذا الطلاق في المفهوم اللغوي يعني حل الوثاق، وهو مشتق من الإطلاق أو الإرسال، والتترك... وقانونيا هو إنهاء للعلاقة الزوجية"⁽³⁶⁾ ولكن في الواقع الاجتماعي هو فض العلاقة بين امرأتين وليس فقط بين الزوج والزوجة حيث الحماة ترفض الكنة وتبحث بوسائلها الخاصة على فض الرابط الزوجي بين الزوجين أين الزوج يبقى تحت طوع الأم تأهله إلى التنازل عن دوره ووضعه كأب وزوج حيث الزوجة لم تستطع جذب الزوج إليها؛ فالطلاق هو حل الوثاق بين ثنائي من نفس الجنس وليس بين جنسين مختلفين. يوضح camilleri في نفس السياق أن "ظاهرة الطلاق تكون نابعة من المحيط العائلي للزوج ومفروضة عليه تحت قوة ضاغطة... لا يستطيع مواجهة الوالدين إما تحت منطق الاحترام أو التعلق"⁽³⁷⁾.

كما قد يصدر قرار الخلع أو التخليق عندما لا تتوفق الزوجة في علاقتها مع الزوج وتعتبره غير وقي في علاقته معها ومع أبنائه. "زوجي... كان مُسيطر من طرف أسرته... عندما أشتكي له إذا انتهت لبعض الأمور التي لا تُعجبني لا يأتي في صفي أبدا... كما أنه لا يحب المسؤولية وليس مهتم بأمور المنزل... حتى يوما قلت له أنا راني "بجذمتي" وعائلتي، واليوم الذي أقرر فيه الخروج لا يمنعني أحد، وأعرف جيدا ماذا أقول. فلم يهتم لكلامي... إلى أن جاء اليوم وقمت بالخلع"

فإذن فض الرابط الزوجي هو قرار نسوي أكثر منه ذكوري، في زمن مُتغير برزت فيه المرأة العصرية التي تعددت مسؤولياتها كزوجة وأم في علاقتها بالجمال الخاص، وامرأة عاملة لها دخلها المادي المستقل واعية بمكانتها الاجتماعية الحديثة، أمام المرأة التي لا تزال محافظة على معتقدات الأواصر متمسكة في علاقتها التقليدية مع الكنة، ويبقى الزوج في موقفين متناقضين بين التقليدي والحداثي يعجز عن الاختيار بينهما، أين يصدر قرار الطلاق من أحد الجانبين. ويبقى الطلاق هو عامل من عوامل التغيير في نمط العلاقات الأسرية والتغيير المرفولوجي للنسق الأسري مبني تحت نظام الاختيار واتخاذ القرار ضمن العلاقة الثلاثية أين تبرز الصراعات والتوترات تؤدي إلى نتائج وخيمة.

4. نتائج العلاقات الأسرية بعد الزواج:

الصراع في نمط التفاعل بين أعضاء الأسرة يولّد علاقات وروابط ضعيفة مع ضعف العاطفة، قد يؤدي إلى بروز مشاعر الحقد، البغض والكراهية يمكن من خلالها الفرد اللجوء إلى الإساءة وردود أفعال معنّفة، ناتجة عن ضغوطات لم يتحمّلها الشخص. وستؤثّر بالضرورة في حالته النفسية والصحيّة بعد فترة من الزمن.

والعلاقة بين الكتّة والحماة هي علاقة معنّفة، تُفسّر على أساس المكانة والدور لكل منهما. إنّ قوّة مكانة الحماة ورمزيّتها الاجتماعية تعطيها شرعيّة إصدار الأوامر، فتكون الطرف المحتذى به ضمن المنضومة الأسرية حيث تمارس سلطتها وتهيمن على الطرف الآخر الذي يعترف بوجوب الطاعة والخضوع والامتثال لها. وهذه السلطة يمكن أن نعتبرها بلغت ذروة السلطة الذكورية. يشير Lacoste-Dujardin مفسّراً أنه، يمكن أن نتجراً إلى حد القول أنّها اجتماعياً أكثر ذكورية بين النساء⁽³⁸⁾.

وباعتبارها الأم المالكة للسلطة ستقوم بالضغط على الكتّة فاضة عليها معايير لا تتناسب مع اتجاهاتها ومعتقداتها الخاصة وتجد الكتّة ما عليها إلا الانصياع والخضوع لها بصفته الأمّة والناحية ضمن البناء الأسري، حيث تشير معضمتهم: "شيخخي مسكين لا يتكلّم كثيراً". "حتّى شيخخي لا يتنهّد معها"، "شيخخي لا يعترض على رغباتنا...؛ فالحماة هي من تصدر القرارات في المجتمع الذي يعتبر مجتمع ذكوري. في هذا الجوّ المشحون بالأوامر ستعرض الكتّة إلى ضغط نفسي ومعنوي، حيث تشعر بالإهانة وعدم تقدير الذات، الإحباط، مزاج معكّر، مما ينتج ردود أفعال منوّعة للنظام تحت اسم "التوترات المعاكسة" وهي مرحلة الانفجار الناتجة عن تكديس التوترات⁽³⁹⁾، ستؤول إلى ممارسة العنف بطريقة معاكسة، تريد الزوجة بذلك إعادة الاعتبار للذات المهانة باحثة عن طريقة للتخلّص من الوضع الكاسح، حيث تدخل في علاقة صراع معنّفة لها بداية وليس لها نهاية مع الحماة خاصّة وأسرّة الزوج عامّة: "هاجمت حماي وجها لوجه صارخة في وجهها. هدّدتها أنّها، إذا حاولت الاقتراب مني أو حاولت الضغط عليّ أو إبتزازي ستلقى إهانة لم ترى مثله من قبل". "لو كانت أمي على قيد الحياة ورأت ما فعلته وكيف تصدّيت لهم (أسرة الزوج) لقاتلت من الغير الممكن أنّها ابنتي، فلقد قويت نفسي وهاجمتهم وكأنني لست أنا".

من خلال تصريح المبحوثات اكتشفنا أنّ قدرات على مواجهة ومواجهة المشاكل في الحياة بعد الزواج إلى حد استعمال أساليب عدوانية معنّفة من تهديد وإبتزاز، وهذا ما لا يمكن تقبله من الكتّة مهما وصلت ذروة الضغوطات التي تتعرّض لها، فلا يستوجب عليها التمرد ضدّ الحماة أو ضدّ أي عضو من أعضاء عائلة الزوج، عليها دائماً أن تثبت إخلاصها ووفائها لهم. ولهذا بممارستها للعنف ستفقد التبادل العاطفي مع أسرة الزوج كما أنّها ستعرض للأحكام السلبية والغير مرضية من طرف أعضاء العائلة: تقول إحداهنّ "أصبحت في نظرهم امرأة غير مهذّبة، سيّئة التربية". وفي هذه الحالة إمّا يتمّ صدّها حيث لا تُقبل كفرد ضمن أعضاء العائلة. أو تتعرّض للنبد وعدم الاحترام مما سيزيد من حدّة توتراتها النفسية تؤثر في حالتها الصحيّة. فإنّ المشاكل الأسرية -إلى حدّ التأوّه وعدم الاحتمال حتى يطفح الكيل- تولّد المشاكل الصحيّة العضوية منها والنفسية، مما يسمح لنا قوله أنّ الوهن الصحي ناتج عن ظروف اجتماعية قاسية في نظام صارم شديد الضوابط. مؤكّداً MARANDA P. أنّه "من شدّة تلقي الضّرر، ننتهي بالضّرر"⁽⁴⁰⁾

خاتمة

العائلة الجزائرية لا تزال أسرة تقليدية في موضوع الزواج وعلاقتها بالزوجين، وعلاقة كل من الزوج والزوجة بأسرتهما الأصلية. الجماعة الأسرية لا تعترف بمضمون علاقة زوجية كرابط قويّ يجمع كل من الرجل والمرأة حيث ينفردان كل منهما بالآخر مكوّنان عقل زوجي مشترك، وإنّما شخصية الفرد تنصهر ضمن العقل الجمعي في علاقته مع أعضاء العائلة ككل، ومستقبله الزواجي محدّد في نظام تقليديّ؛ يستوجب على الرّجل بعد الزواج أن تكون علاقته الأساسية مع الأم وأسرته عامّة فيحافظ على وفائه وإخلاصه لها، وتبقى علاقة ثانوية بالزوجة، وإذا كان عكس ذلك فقد يتعرّض للإهانات ويفقد مكانته كإبن مطيع للعائلة يُتهم بالعقوق. وعلى المرأة بالمقابل توطيد علاقتها بأم الزوج لتحفظ مكانتها ضمن الجماعة الأسرية وتحقق النجاح الزواجي.

العلاقة الزوجية تقاس على أساس درجة التبادل العاطفي والتجانس الفكري، كيفية قضاء أوقات الفراغ، مع تحديد الهدف المشترك... والاتصال الزوجي يعد ضروري في بناء العلاقة، ومنه تتحدّد درجة التوافق والاندماج الزوجي⁽⁴¹⁾. وفقاً لهذه المحدّدات القياسية نشير إلى أن، واقع الحياة بين الزوجان في المجتمع الجزائري لا يترتّب عليها هذه المحدّدات المعيارية، ويرجع ذلك للعوامل التالية:

- الزوج والزوجة تربط بينهما علاقة عاطفية فاترة حيث أنّ العاطفة الجياشة موجهة لأسرة الانتماء الأصلية عامّة والتعلّق الشديد بالأم خاصة. مما يضعف الإتصال والتواصل بين الزوجين.
- عامل الوقت: أوقات الفراغ لا تجمع بين الزوجين إذ لا يمكن للزوج رفقة الزوجة بدون حضور الأسرة أو أحد أعضائها (الأم، الأخت...)). كما يفضل الزوجين قضاء أوقات الفراغ مع الأسرة حيث تتكرر الزيارات بطريقة مستمرة للوالدين.
- الكتّة – أو الزوجة- تتّبع معايير الجماعة المندمجة إليها محاولة الانسجام معها، ساهرة على راحة العائلة، متنازلة عن تفاصيل العلاقة الزوجية التي قد تعيد بناء التبادل العاطفي وتحيي المشاعر الزوجية.
- جوهر وكنه العلاقة الزوجية هو شرعية الإنجاب. وهذا الدور الرئيسي الذي تعترف به العائلة الجزائرية، ومن خلاله تضمن الزوجة نفسها في علاقتها مع العائلة حيث تصبح أم للأبناء، وهي أرقى مكانة تحتلها في علاقتها بأسرة الزوج والتي تسبق مكانتها كزوجة.
- الهوامش:**

24. سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، دار الأهليلة للنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1، 2008. ص.122.
25. سيمون دي بوفوار، نفس المرجع، ص.160
26. Kaufmann J.-C., sociologie du couple, 1ère édition, PUF, 1993. P.P.63-64
27. أنظر: François de singly، (2007)، مرجع سبق ذكره، ص.14.
28. François de singly، نفس المرجع، ص.7.
29. أنظر: قعوسي علي، سبق ذكره، ص.ص.213-215. أنظر كذلك: François de singly، سبق ذكره، ص.55.
30. Émile Durkheim , “ La famille conjugale”, 1892, P 9. « les Classiques_des_sciences_sociales »
31. أنظر: CAMILLERI C.، مرجع سبق ذكره، ص.122.
32. LACOSTE-DUJARDIN .، مرجع سبق ذكره، ص.ص.310-311.
33. LEMARCHANT C., avec les beaux parents trouver la bonne distance, collection : le sens social, presse universitaire de Renne, 1999, P.17.
34. أنظر: camilleri C.، مرجع سبق ذكره، ص. 27-28.
35. أنظر: بوتفوشنت، مرجع سبق ذكره، ص.66.
36. عبد القادر القصير، الأسرة المتغيرة في مجتمع المدنية العربية: دراسة ميدانية في علم الاجتماع الحضري والأسري، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1999. ص.98
37. camilleri، مرجع سبق ذكره، ص.107.
38. عددي الهواري، مرجع سبق ذكره، ص.106
39. Bouzid Baa Saliha, Femmes victimes de violences conjugales, Dirassat insaniya wa Ijti-maiya, N°6, janvier 2016. P.7.
40. MARANDA P.، مرجع سبق ذكره، ص.26
41. أنظر: KELLERHALS، مرجع سبق ذكره، ص.240 .